دراسات فى الفن :

... والفن زعامة

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

هؤلاء جماعة من أبناء الصعيد العمال فى عمارة ، وهذان زعيمان متقدمان عليهم . أحدهما هذا الذى استجلبهم من الصعيد ووصلهم بهذا العمل الذى خبره ووقف على سره فهو مرشدهم فيه وقائدهم ، والآخر هذا الذى يغنى لهم أثناء العمل ما اشتد بهم العمل وما هان عليهم ؛ فهو أكثرهم شعوراً بوحشة الغربة ، وهو أشدهم شعوراً بوجوب الكفاح فى سبيل الرزق ، وهو أشدهم تفاؤلاً ورضا بقضاء الله ، وهو أشدهم نزوعاً إلى التعبير عن هذا كله ، وهو أقدرهم على هذا التعبير ، وأحلاهم فيه

فإذا وازنا بين زعامة المقاول ، وزعامة المنشد ، رأينا أن زعامة العيش تتستر وراء زعامة الروح والفن استحياء وتخاذلاً ماشبعت البطون ، وما جرت الأرزاق فى نهجها الطبيعى ، وما سار العمل على نمطه المرسوم . فهؤلاء الجماعة من العمال لا يذكرون أن لهم إماماً يتبعونه فى الحياة غير منشدهم إلا عند ما يطلبون الأجر أو العمل ، وهم فيما عدا ذلك هائمون وراء شاديهم الذى يغنيهم ، والذى يستدرج إلى نفوسهم ذكريات الماضى ، ويقرب منها آمال المستقبل .

وفى ساعة من الساعات يفيض الشادى بالسحر والحنان والبهجة ، فيرشف منها شعبه وينهل ، وإذا بجمهور آخر من أبناء الصعيد أيضاً كانوا يمرون فى فراغهم بهذا الحشد السكران ، يتجمعون حول الشادين يشدون معهم ، لأنهم حنوا إلى الصعيد مثلهم ، واستوحشوا الغربة ، وذكروا الأحبة وهاجت فى نفوسهم الآمال ، وطاب لهم هذا الترويح الذى وجدوه فأقبلوا عليه يستروحون . وإن منهم من يقف كالمسحور يهزه الطرب ولكنه يعجز عن ترديد ما يسمع .

وفى ساعة أخرى يمر بهؤلاء الشادين جماعة آخرون شادون ولهم هم أيضاً زعيم يغنى على ليلاه وأتباعه يرددون ؛ فإذا صادف الغناء الطارئ هوى عند الماكثين فهم أصدقاء وأحباء ، فإذا رأوا فى الغناء الطارئ تعريضاً بمفخرة من مفاخرهم فهى معركة حامية قد تذهب فيها الأرواح

هذه صورة بسيطة من صور الزعامة الفنية وهى من الصور القليلة التى لا تزال قريبة من الطبيعة فى صدقها وانحصارها . وإن لها شبيهاً عند أبناء البلد من القاهريين ، فهم لا يزالون يقيمون حفلات الغناء فى مشاربهم العامة ، يقيم الحفلة منها مسيان لكل منهما شعب يتبعه أينما حل ، فإما يجد ما يصبو إليه من

طالبـــا عوضاً عن ديار الفلاح ؟
ولولى ، ولولى يا رياح !
عجبـــا بالدموع تجيبْ فإذن أنت مثلى غريب
أنت مثلى طـــريدْ هائم تستعيـــد
ذكر ماض بعيد كان حلماً وراح
هوّى ، هوّى يا رياح !
أنت مثلى ضللت الطريق فيكَ سرٌّ كسرّى عميق
لا تَنُحْ يا ملاكْ ما دهـــانى دهاكْ
إن تكن للملاك فالملاك ارتيـــاح
هوى ، هوّى يا رياح !
قم بنـــا فالرياح تكادْ تجعل الدمع منّا جمـــاد
وتعـــالَ نَنَمْ فى سرير النـــدمْ
علّ شهر الظلم فى المنـــام يزاحْ
أسكتى ، أسكتى يا رياح

جبرائيل نعيمة

احترام وتوقير ، وإما يحمى زعامته وكرامته بالعصى ...

وثمة صور أخرى لهذه الزعامة التى تفرضها الطبيعة فرضاً ، والتى لم تستطع الحضارة منعها إلا أن تعممها فكان ذلك من حسناتها القلائل التى نجت من الصاحبات السيئات . من ذلك تلك الزعامات الفنية التى تقوم للطبيعة والسينما والمسرح بالترويج لها ، وبالطواف بها فى بيئات العالم المختلفة . فأدوات النشر هذه تذيع آثاراً فنية بين الناس ، فتجد هذه الآثار الفنية من يطرب لها ، ومن يرى فيها ترديداً لشىء كان يجول فى نفسه ويريد أن ينفثه منها ، أو من يرى فيها شبيهاً لشىء رآه وأحسه ، ولكنه لم يستغرق فى تأمله ، أو من يرى فيها إمكان الحدوث على هذه الصورة من صور الجمال التى حققها له الفنان ... وهؤلاء جميعاً عند ما يرون هذا يشهدون للفنان الذى أسعدهم به أنه زعيم عليهم فيه ، فمنهم من يتقرب إلى زعامته بفن فيه من روح فن الزعيم ويذهب مذهبه ، ومن هؤلاء من يأبى إلا أن ينافس الزعيم حتى يتزعم هو ، ومنهم من يرضى بالمتابعة ، وأكثر الناس يرضون بالمتعة يصيبونها عند الزعيم الأصيل وعند المتزعمين وراءه ، ومنهم من يهتم الاهتمام الكبير بالمناوشات التى تدور حول الزعامة . بل إن منهم من يثيرها ويشعل نيرانها رغبة منه فى التلذذ بشهود الصراع الروحى الذى لا يكون من ثمرته إلا الرقى والذى لا ينبت على جوانبه الغل ولا الحقد إلا حيث يكون النقص والعجز

وتتسع الزعامة الفنية كغيرها من الزعامات كلما اتجهت إلى العموميات التى يشعر كل الناس بأن لهم صلة بها . فالأديب الذى يذكر الرحمة يجد فى الناس عدداً يطرب لذكرها أكثر من العدد الذى يجده أديب آخر يذكر منظراً خاصاً من مناظر الطبيعة لا يعرفه إلا القليلون من الناس هم الذين يعيشون عنده ، وهم الذين يطربون لذكره إذا جرى على لسان الأديب . ذلك أن الرحمة عاطفة تدركها النفوس الإنسانية جميعاً ، ولكن هذا المنظر الطبيعى الخاص لا يدركه إلا أهله فقط

وليس معنى هذا أن زعامة الفنان صاحب الجمهور الكبير أفضل من زعامة الفنان صاحب الجمهور الصغير . فقد يحدث أن يستشعر فنان بمشكلات تزحف نحو الإنسانية من بعيد فيراها ، ولا يراها معه من الناس أحد غيره ، وعند ما تتملى نفس هذا الفنان شعوراً بهذه البشائر أو النذر ، وعند ما يعبر عنها بفنه ، فإنه قليلاً ما يجد الناس الذين يتذوقون تعبيره ويوافقون عليه ويطمئنون إليه ، وإنما يغلب أن تثور عليه الجماهير ، ويغلب أن يتصدى له من زعماء الفن فى عصره من تقاعد بهم الحس فيزمونه بالعجز أو الخبل ، أو الالتواء أو شتى هذه التهم التى يتقاذف بها المتقاطعون الذين لا يتفاهمون ، والذين لا يريدون أن يتفاهموا . وكثيراً ما ينكمش الفنان السباق فى حنايا فنه وتلافيفه فيقضى ما يقضى من العمر وهو غريب عن عصره ، حتى إذا ولى عن الحياة ، وولى معه جيله وجاء بعده أناس قربتهم الحياة مما كان يراه ويتحدث عنه آمن هؤلاء به ، واستعادوا فنه واسترجعوه ، وأقاموه من أنفسهم فى مقامه الحق ... وجعلوه هو الزعيم ، فهم أحياء وزعيمهم ميت ... وفى هذا ما فيه من عدل الثأر الذى له عند آبائهم الذين أنكروه ، فهم كلما ذكروا زعيمهم وطلبوا له الرحمة لعنوا آباءهم لأنهم كانوا كافرين .

ويقابل هؤلاء الزعماء السباقين زعماء آخرون زعامتهم معكوسة فهم لا يقودون الجماهير ، وإنما يجرون وراء الجماهير ، وقد يجد هؤلاء من وفرة التابعين ما لا يجده الواثبون الصاعدون . وهؤلاء الزعماء الأذناب لونان ، منهم من تسوقه نفسه إلى استرضاء الجماعات لأنه يحب رضا الجماعات ولأنه بطبعه فرد من أفراد الجماعات لا يزيد عنهم حساً ، ولا يزيد عنهم قدرة على التعبير ، وإنما كل ما يميزه هو الجرأة على التعبير والانطلاق به . ومنهم من يتسقط هذا الرضا عند الجماعات ليتسقط معه الربح المادى والجاه والشهرة ، وهذا أدنأ من صاحبه وأقرب إلى التجارة منه إلى غيرها . فالفنان فى غير التجارة لا يعبأ « بالزبائن » ولا يحسب حساباً لأذواقهم . أما التاجر وحده فهو الذى يستقصى طبائع الأسواق مستعرفاً أى البضائع يروج فيها وأيها يبور

وليس هذا من طبع الزعامة فى شىء ، وإنما هو من ملق العبيد الذى تضيق عنه أخلاق الفن . وإنما أمانة الزعامة تقتضى الإرشاد والإصلاح والتحسين . فإذا كان الجمهور متردياً فى رذيلة من الرذائل فليس زعيماً ولا هادياً من لم ينقذه منه . وكما أن الجماهير تتردى فى رذائل خلقية ، وفى رذائل عقلية ، وفى رذائل اجتماعية ، فإنها تتردى كذلك فى رذائل حسية يجب على من يحمل لواء الزعامة الفنية فيها أن ينقذهم منها أو أن يحاول إنقاذهم على أقل تقدير ما دامت هذه الزعامة سبقاً فى الحس ، وسبقاً فى التعبير ... وإلا فهى

لا شيء ... أو هي تلك الأنانية الفنية الضيقة التي ليس لها شأن إلا بصاحبها فقط

أما الرذائل الخلقية والاجتماعية والعقلية فهي الأغلاط الإنسانية التي يعالجها أصحاب الفضيلة والإصلاح الاجتماعي والناهضون بالعقل المؤدى إلى العلم النافع ... وأما الرذائل الحسية فهي التي ينفضها الفنانون عن أنفسهم بالسليقة أو بالتدريب الحسي فيزيحونها كذلك عن نفوس الذين يتابعونهم في إحساسهم ويتلمذون عليهم فيه ، والذين يشابهونهم في طريق التعبير عنه . ومن أمثلة هذه الرذائل الحسية ما تعانيه البشرية اليوم من استعار التعصب للقومية المادية، فهو وإن كان مما تلزم إثارته عند الشعوب الضعيفة حفظاً لكيانها بين الشعوب القوية المتعصبة ؛ فإنه مما يجب أن يكافح وأن يقاوم بكل وسائل الكفاح والمقاومة عند الشعوب القوية، لأنه لا معنى له إلا الانحطاط بالمثل البشرية العليا ، إلى حيث تكون أدنأ المثل وأضيقها رحاباً وأقذرها أهدافاً .

والفنانون الذين ينتظرهم العالم اليوم لينقذوه من هذه الرذيلة هم الفنانون الذين يحسون القبح في هذا الإحساس ويشمئزون منه ويدعون إلى فض هذا النزاع المادي المستتر تحت قناع القومية ولا بد أن تبدأ دعوتهم بأن يشعروا شعوراً صادقاً بأن الإنسانية حين تقدمت بعقلها وعلمها في طريق الحضارة الماثلة الآن تلكأت أو انتكست في سعيها الحسي ، فلم توازن بين هذا التقدم في الحضارة وبين ما كان يجب أن يصاحبه من الإحساس الذي يشمل البشرية كلها كما استطاعت الحضارة أن تربط أطراف العالم بعضها ببعض وأن تخلط الشعوب بعضها ببعض ، وأن تصل العقول بعضها ببعض ، بحيث أصبح الياباني يعرف كل ما يعرفه الإنجليزي من المعلومات ، وبحيث أصبح الأمريكي يقرأ ما يقرأه الاسترالي من الكتب وبحيث أصبح التركي يدرك ما يدركه النرويجي من الحقائق العلمية . . .

ولكن إحساس اليوناني لا يزال بعيداً كل البعد عن إحساس الإنجليزي ، وشعور الأمريكي لا يزال بعيداً كل البعد عن شعور الأسترالي ، والمثل العليا التي يجري التركي وراء تحقيقها لا تزال مختلفة كل الاختلاف عن تلك المثل العليا التي يسعى النرويجي إليها؛ وليس ذلك إلا لأن الفنون قصرت حيث فشلت العلوم ، ولأن إحساس البشرية تبلد حيث التهب عقلها . وما كان عقل البشرية ليهديها إلى الخير وحده ، فلا بد له من إحساس وأخلاق يسير في مصاحبتها إلى هدف الهدى

على أن هذا لا يسمح أن يدفع اليأس إلى نفوسنا من صلاح الناس ، فإن بذرة النجاة موجودة ، وطريق السعادة ممهد قد رسمه الإسلام. وليس ينقص الإنسانية اليوم إلا فنانون مسلمون يضربون بالحاح على ذلك الوتر المشجي الذي عزف عليه القرآن أول مرة فرتل قوله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . فمتى شاع هذا الإحساس في الناس شاعت فيهم السعادة . وقد كاد هذا الإحساس يشيع لولا أن انقسم العرب على أنفسهم فأصبحوا مشارقة ومغاربة، ولولا أن استعصمت أوربا بتعصبها، فألحت في محاربة المسلمين الذين نزلوا الأندلس ومضت في الحرب إلى أوائل هذا القرن حتى احتل اللورد اللنبي فلسطين فقال: اليوم فقط وضعت الحرب الصليبية أوزارها .

على أن الإنسانية قد بدأت تحس هذا الإحساس النبيل ، وإن كان يداخل نفسها في هدوء وفي بطء، وإن كان عقلها ولسانها لا يزالان ينكرانه . ولولا هذا الإحساس لاشتبكت الدول في الحرب منذ عام أو منذ عامين، ولكن هذا الإحساس هو الذي يكتف القادة من غير أهل الفن ، ويمنعهم من توريط أنفسهم بإعلان الحرب لأنهم يكادون يكونون مؤمنين بأن الشعوب أصبحت لا تتغاضب ولا تتقاتل جرياً وراء فكرة القومية المكذوبة ؛ ولأنهم أصبحوا يرون أن الأفراد اليوم يمتزون بجبانهم ، وبمتعة الدعة أكثر مما يمتزون بالرغيف .

وليست الشهادة الحرفية بتوحيد الله ، والاعتراف الحرفي برسالة محمد هي كل ما نطلبه ، وإنما نطلب لسعادة البشرية الإيمان بوحدانية الله إيماناً يتطرق إلى كل عمل وكل قول مما يعمل المؤمنون ويقولون ، والإيمان برسالة محمد إيماناً ينفي كل ما يراد به تفضيل طائفة من طوائف البشر ورفعها على الطوائف الأخرى ؛ فإن محمداً لم يكن يرى فضلاً لعربي على عجمي إلا بالتقوى

هذا هو الفن الجديد الذي تريده الإنسانية اليوم . وقد يجود به عليها مسلم ، وقد يجود به نصراني ، وقد يجود به يهودي ممن تتسع أذهانهم وتصفو نفوسهم فتجنح إلى جانب المادة ما هو خير من المادة ، بل قد يجود به وثني مثل فاندي

وقد كان طبيعياً أن ينعقد اللواء للزعامات القومية فيما مضى وأن تصطبغ حتى الزعامات الفنية بألوانها فى أتم درجاتها لأن البشرية لم تكن قد التحمت هذا الالتحام الذى تشابكت به اليوم؛ فلم يكن عجباً أن يكون زعيم القبيلة هو فارسها وهو شاعرها كما كان عنترة العبسى فى قومه مفخرة لهم، له اليد الطولى فى مجدهم الحربى ومجدهم الفنى أيضاً ... ولكن منذ بدأت الآفاق تتفتح أمام المجموعات البشرية حتى عليها أن ينفتح إحساسها حتى يحيط بكل ما تضرب فيه الحياة وحتى يلم بكل ما يضطرب فيها

ولا ريب أن الإنسانية قد انتبهت إلى هذا الآن، فقد قضت وقتاً طويلاً وهى تجرب هـذه الدعوات التى تهتف بالقوميات والعصبيات المادية فتبين لها أنها دعوات ضعيفة عاجزة منافقة

أما ضيقها فتابع لضيق البيئات التى تصلح لانتشار كل منها، وأما عجزها فتابع لما تستدعيه من التنفير الذى ينفث الكراهية فى نفوس الناس فيرجم بعضهم بهـا بعضاً، وأما نفاقها فظاهر فى أتباعها كما أنه ظاهر فى ميوعتها وحيرتها وتناقضها مع نفسها، فقد كانت للإنجليز قومية يدعون إليها ويفخرون بها، وكان منهم من أسرع إلى أمريكا فاستوطنها ثم أبى أن يخضع لسلطان وطنه الأول فانقلب على قوميته وأنشأ مكانها قومية أخرى يحبها ويناضل فى سبيلها لأنها تتصل بالأرض التى يعيش عليها ويأكل منها، ولا أكثر. وهذا ما حدث للأسبان الذين نزلوا أمريكا الجنوبية فقد انقلبوا على أسبانيا أمهم الأولى؛ ثم انقلبوا على أنفسهم واستأثر كل جماعة منهم بقطعة من الأرض ... وهذا يثبت أن فكرة القومية والوطنية المادية ليست من الشرف فى مكان يعلو على المادة ويتسامى عليها، وما من شك فى أن «قومية الفكر» أو «قومية الفن» خير منها. ويتضح فضل الروحانية بمراقبة هذه القوميات المادية عند ما يحتك بعضها ببعض فإننا نرى أن المادة والشغف بها يزيدان الصراع بين الناس استعاراً بينما المذاهب الروحية كلما توغلت فى نفوس الناس على أساس من الصحة والسلامة ومجاراة الطبيعة والبعد عن التكلف كان ذلك أدعى إلى تقارب البشر، وزيادة تفاهمهم وتعاونهم

فالفن إذن ليس زعامة فقط، وإنما هو أرقى الزعامات

ليت الداعين إليه يزيدون فى الناس، وليت دعوتهم تذيع!

عزيز أحمد فهمى

حركة السير ريالزم

للأستاذ رمسيس يونان

«يجب أن نحقق لكل إنسان نصيبه من الخبز ... ونصيبه من الشعر ...» تروتسكى

يخطئ من يظن أن حركة السير ريالزم هى حركة أدبية أو فنية خالصة، وإن كانت تستخدم الشعر والقصة والرسم والسينما ... ويخطئ من يظن أنها حركة سياسية بحتة، وإن كان القائمون بها يدينون بمذهب سياسى معين. وليست هى أيضاً مزيجاً من الفن والسياسة، فقد صرح «أندريه بريتون» زعيم الحركة مراراً وتكراراً بأنه لا يوافق على أن يتخذ الفن وسيلة للدعاية السياسية. وقد فُصل «أراجون» من جماعة السير ريالين لأنه خالفهم فى هذا الرأى. فما هى إذن حركة السير ريالزم هذه؟ وما غايتها؟

يصعب علينا أن نضع تعريفاً للسير ريالزم فى كلمات قليلة. فإذا كان لا بد من ذلك فعلينا أن نقول: إنها حركة اجتماعية فنية، سياسية، فلسفية، سيكولوجية ... ولا بأس أن نضيف أيضاً أنها حركة دينية. فهى تستلهم شعر «رمبو» و«بودلير» و«لوتريامون» وتأخذ عنهم حب الخيال الثورى البعيد عن المنطق وأساليبهم الغريبة فى الشعور والتعبير. وتستلهم فلسفة «هيجل» فى إيمانها بالحرية؛ وتدين مع «كارل ماركس» بالتفسير المادى للتاريخ؛ وتأخذ عن «فرويد» نظرياته فى العقل الباطن؛ ثم هى فوق ذلك تحاول أن تعتمد على هـذه العناصر جميعاً فى خلق ميثولوجيا جماعية جديدة mythe collectif تناظر الميثولوجيات التى خلقتها الديانات القديمة

ومهما قالوا عن كارل ماركس، ومهما قالوا عن فرويد فلا شك فى أنهما الرجلان اللذان استطاعا أن يؤثرا فى الفكر الأوربى الحديث أكبر التأثير. فإلى كارل ماركس يرجع الفضل فى تفسير التاريخ على أساس من حروب الطبقات وفى التنبؤ بثورة العمال وبدكتاتورية العمال، ثم بالعصر المقبل (الموعود!) الذى تزول منه الطبقات وتكتمل فيه المساواة الاقتصادية. وقد تأثر العمال بالمذهب الماركسى فنشطت حركاتهم ونمت أحزابهم حتى أصبح الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية أساس السياسة الأوربية فى السنين الأخيرة؛ كما تأثر بهذا المذهب عدد كبير من رجال